مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 21 عدد 2 السنة :2022

الحِجاج بالإيتوس في الحديث الشريف وأثره في فهم المقاصد النبوية.

Pilgrims based on etos in the noble hadith and its impact on understanding the prophetic purposes.

الملتقى الدولي

الحديث النبوي الشريف وآليات تحليل الخطاب

11و12 شعبان1443هـ الموافق: 14و15مارس 2022م

د.محمد لمين مقرود

–المدرسة العليا للأساتدة آسيا جبار قسنطينة–

تاريخ الاستلام: ../../2022 تاريخ القبول: ../../2022. تاريخ النشر: 28/07/ 2022

يُعدُّ الحجاج ركيزة أساسية في الحديث النبوي، كونه خطابا يروم إقناع الآخرين وحملهم على التسليم بأشياء معينة أو ترك التسليم بها، وقد دُرس هذا الجانب الحجاجي في بحوث كثيرة لكنّ أغلبها ركّز إما على الجانب اللغوي أو على الجانب المنطقي العقلي (اللوغوس) منه[1]، وكان هناك إهمال شبه تام للجانب الذاتيّ منه المعروف بالإيتوس، هذا الجانب الذي يعتمد على مصداقية المتكلّم وظهوره بالمظهر الذي يجعله جديرا بثقة جمهوره وسامعيه. ولهذا يروم هذا البحث إلى أن يجيب عن مجموعة من الأسئلة في هذا الصدد وهي:

ما مدى حضور طريقة الإيتوس في الحجاج النبوي؟

وما أسباب هذا الحضور وأنواعه وخصائصه؟

وما مدى تأثير الإيتوس الصريح في فهم المقاصد النبوية؟

الكلمات المفتاحية : الحجاج بالإيتوس ، الحديث الشريف ، المقاصد النبوية ،الخطاب .

[1] من هذه الدراسات كتاب "الحجاج في الحديث النبوي –دراسة تداولية–" للباحثة آمال يوسف المغامسي، الصادر المتوسطية للنشر، تونس، سنة 2016. وهي دراسة قيمة للحجاج في الحديث النبوي، لكنها ركزت على الجانب العقلي المنطقي منه وأهملت تماما الجوانب الأخرى.

Summary:
Pilgrimage is considered a fundamental pillar of the Prophetic hadith, as it is a speech that aims to persuade others and force them to accept certain things or abandon them. This aspect of argumentation has been studied in many researches, but most of them focused either on the linguistic aspect or on the logical, rational aspect (logos) of it, and there was Almost complete neglect of the subjective side of himself known as etos, this side that depends on the credibility of the speaker and his appearance in the way that makes him worthy of the trust of his audience and listeners. Therefore, this research aims to answer a set of questions in this regard

Keywords: pilgrims with Aetus, noble hadith, prophetic purposes, speech.

1-مفهوم الإيتوس:

مصطلح "الإيتوس" (Ethos) مأخوذ من الخطابة القديمة، وهو يشير إلى صورة الذات التي يبنيها المتكلم في خطابه ليمارس تأثيرا في المخاطَب. ويستعمل في علوم اللغة وتحليل الخطاب على تقديم الذات في التفاعل اللغوي[1]. ويستخدم هذا المصطلح عند "أرسطو" مع مصطلحين آخرين هما: اللوغوس (Logos) وهو الإقناع بواسطة الخطاب نفسه من خلال إثبات حقيقة أو شبه حقيقة، والباتوس(Pathos) وهو الإقناع بواسطة السامعين من خلال إثارة مشاعرهم[2].

تقوم فلسفة الإيتوس عند أرسطو على فكرة أن الإقناع الذي هو جوهر الخطاب لا يتحقق بواسطة الاستدلال العقلي الذي يتضمنه الخطاب وحده، بل يعتمد بشكل كبير على الصورة التي تكون لدى السامع عن المتكلم، ومن الأثر الذي يتركه الخطيب في نفوس الجمهور، فعلى قدر نصاعة تلك الصورة وحسن هذا

[1] باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: حمادي صمود وعبد القادر المهيري، المركز الوطني للترجمة، تونس، ص 230.

[2] أرسطو طاليس: الخطابة، تر: عبد الرحمان بدوي، دار الرشيد، العراق، 1980، ص 29.

الأثر تتهيّأ للخطيب فرص الفوز بإعجاب الجمهور وكسب ثقتهم، وتتيسر له سبل استمالتهم وإقناعهم[1]، "فالإيتوس انطلق من مبدأ أنه يستحيل الإقناع دون أن يظهر الخطيب منذ البداية في صورة توحي بالمصداقية والثقة"، ويقوم الاستدلال على هذه الفكرة على النحو التالي: "إذا كان كل خطاب حجاجي يروم التأثير، وكان كل خطاب يقدم صورة عن الذات، فإنّ صورة الذات تصبح شكلا من أشكال التأثير"[2].

فأرسطو يتحدّث عن الإيتوس باعتباره وسيلة إقناع صناعية، يصنعها الخطيب بغض النظر عن سمعته الفعلية، بواسطة خطابه الذي ينبغي أن يوحي بأنه يتحلى بأخلاق معينة تدفع المستمع إلى منحه ثقته، لكي يكون مقنعا[3]. وفي هذا يقول أرسطو: «وهذا الضرب من الإقناع، مثل سائر الضروب، ينبغي أن يحدث عن طريق ما يقوله المتكلّم، لا عن طريق ما تظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلم، وليس صحيحا -كما يزعم بعض الكتاب في مقالاتهم عن الخطابة -أن الطيبة الشخصية التي يكشف عنها المتكلم لا تسهم بشيء في قدرته على الإقناع، بل بالعكس، ينبغي أن يعد خلقه أقوى عناصر الإقناع لديه»[4]، وقد اختلف الدارسون في قراءة هذا النص الأرسطي الذي يبدو آخره ناقضا لأوله، ففي أول الخطاب يقصر "أرسطو" "الإيتوس" على الخطاب ويجعله حصرا في الصورة التي يشكلها الخطيب عن نفسه من خلال خطابه سواء أكانت تلك هي صورته الحقيقة أو كانت صورة مركبة، ويستبعد بوضوح الصورة التي يحملها الجمهور عن الخطيب قبل خطابه. لكنه في آخر النص يقول عكس ذلك حين يجعل صورة المتكلم وأخلاقه قبل خطابه من أقوى عناصر الإقناع. وقد حاول أحد الباحثين (جان بيير) إعادة تشكيل هذا النص الأرسطي كالتالي:« يكون هناك دليل بواسطة أخلاق الخطيب، حين يقدّم الخطاب خلقا يجعل من ينطق به جديرا بالثقة. وينبغي مع ذلك، أن تكون هذه الثقة مستوحاة ليس من الخطاب فقط، بل كذلك من سمعة النزاهة عند من يتكلم. وبالفعل، فأنا لا أقاسم بعض معلمي الخطابة رأيهم. فهم يؤكدون أن نزاهة الخطيب لا تسهم في شيء في الإقناع. إن النزاهة الأخلاقية على العكس من ذلك، هي الوسيلة الأكثر نجاعة للإقناع تقريبا»[5]. فهذا التشكيل الجديد للنص الأرسطي أو بالأحرى التأويل له يجعل الإيتوس عند أرسطو على ضربين: إيتوس قبل الخطاب (وهو صورة المتكلم في أذهان المخاطبين خارج مقام التخاطب)، وإيتوس في أثناء الخطاب (وهو

[1] ينظر، حاتم عبيد: في تحليل الخطاب، دار ورد، ط1، الأردن، 2013، ص 97، 98.

[2] محمد مشبال: في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2017، ص 174، 176.

[3] الحسين بنو هاشم: بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، ليبيا، 2014، ص 215.

[4] أرسطو طاليس: الخطابة، ص 30

[5] الحسين بنو هاشم: بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية، ص 214

صورة المتكلم التي يشكلها بخطابه). ويقودنا هذا التقسيم إلى الحديث عن أقسام الإيتوس.

2-أقسام الإيتوس:

عمل الباحثون المعاصرون في مجال البلاغة وتحليل الخطاب على تقديم قراءة تأويلية لمفهوم الإيتوس الأرسطي، رامت إحياء هذا المصطلح وإشاعته لكن وفق مفهوم أوسع مما كان عليه عند أرسطو. فلم يعد مفهوم الإيتوس قاصرا على الجانب الأخلاقي الظاهر في الخطاب كما يفهم من كلام أرسطو، بل توسع ليشمل ما يخفى في الخطاب وما هو خارج الخطاب، بل توسع ليشمل طرق أداء الخطاب والمظهر الجسدي للخطيب.

والدافع إلى هذا العمل هو اعتماد مفهوم الإيتوس "أداة إجرائية في قراءة بعض النصوص قراءة ترمي إلى الكشف عما في علاقة الإنسان باللغة وبالآخر من جوانب لا يزال الغموض يكتنفها"[1].

الإيتوس المقول والإيتوس الموحي:

تقسيم الإيتوس إلى مقول وموحٍ ينطلق من طريقة عرض الذات في الخطاب، فالمتكلمون الذين يستخدمون استراتيجية الإيتوس يختلفون في طريقة عرضهم لذواتهم، فمنهم من يعرضها بطريقة مباشرة ومنهم من يعرضها بطريقة غير مباشرة.

فالإيتوس المقول (Ethos dit): هو الذي يشير فيه المتكلم إلى ذاته[2]، إما بعرض صفاتها الحسنة مدحا لها، وإما بنفي الصفات السيّئة عنها، ويكون كل ذلك بطريقة مباشرة، أي بذكر تلك الصفات صراحة دون مواربة.

والإيتوس الموحي(Ethos montré): هو الذي لا يشير فيه المتكلم إلى ذاته، ولكنّه يحتوي كل العناصر التي تجعل السامع أو القارئ يكشف عن هذه الذات[3].

واستُمد هذا التفريق من تمييز "بنفينست" بين "أنا" باعتبارها ذاتا للملفوظ، و"أنا" باعتبارها ذاتا للتلفظ[4]، ويمكن أن نقول إن كليهما يجعل من "الأنا" ذاتا للملفوظ، لكنّ أحدهما يبرزها والآخر يخفيها؛ فالإيتوس المقول هو إبراز لـ"أنا" الملفوظ، والإيتوس الموحي هو إخفاء لـ"أنا" الملفوظ، أما "أنا" التلفظ فهي واحدة.

[1] ينظر، حاتم عبيد: في تحليل الخطاب، ص 116.
[2] محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص 180
[3] المرجع نفسه: الصفحة نفسها
[4] المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

الإيتوس الجاهز والإيتوس الصريح والإيتوس المضمر:

يقسَّم الإيتوس أيضا إلى جاهز وصريح ومضمر، ومعيار هذا التقسيم يكمن في مصدر الإيتوس، فهو إما أن يكون مصدره الخطاب وإما أن يكون مصدره خارج الخطاب، وعلى هذا الأساس يقسم إلى إيتوس قبلي أو جاهز وإيتوس خطابي، ويقسم هذا الأخير إلى صريح ومضمر، والصريح والمضمر هما التقسيم السابق نفسه (الصريح والموحي).

الإيتوس الجاهز: وهو السمعة التي يحظى بها المتكلم خارج النص الذي يواجهه السامع. ويكون نتيجة معطيات خارجية مختلفة. ويفرض تحليله الرجوع إلى معرفة سابقة بسمعة الخطيب، وبما يروج حوله من آراء وبوضعه الاجتماعي والمؤسسي.

الإيتوس الصريح: وهو الصورة التي يرسمها المتكلّم لذاته، بذكر سماته وفضائله. ويفرض تحليله اعتماد السمات والفضائل التي ينسبها إلى نفسه.

الإيتوس المضمر: وهو الصورة التي يستنتجها المتلقي من علامات الخطاب المختلفة، وفي هذه الحال يكون الإيتوس تشكيلا لغويا خطابيا. ويفرض تحليله تأويل كل العلامات اللغوية والخطبية التي يفترض أنها تسهم في بناء صور الخطيب الذاتية[1].

وهناك علاقة اتصال بين الإيتوس الخطابي والإيتوس غير الخطابي، "والإيتوس الخطابي في علاقة قريبة بالصورة المسبقة التي يمكن أن تكون لدى السامعين عن الخطيب، أو على الأقل بالرأي الحاصل له عن كيفية تصور المخاطبين له"[2]، فالصورة الخطابية عن المتكلم قلما تصنع من فراغ، فالصورة الجاهزة التي يمتلكها السامع عن الخطيب قبل انخراطه في خطابه؛ مما يعرف عن سمعته وشهرته وطريقة حياته وسلوكه ووضعه الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي وأقواله وأفعاله وإنجازاته السابقة، معطيات تسهم في فعالية صورته الذاتية وتأثيرها في السامع[3].

الإيتوس الخلقي والإيتوس الجسدي

يحدِث معيار الوسيلة تقسيما آخر للإيتوس يجعله خلقيا وجسديا، وهذا التقسيم هو من القراءات الموسعة، فالإيتوس كان في السابق يقتصر على الجانب الخلقي، لكننا نجد "دومينيك مانغنو" مثلا يعرف

[1] المرجع نفسه: ص 187.

[2] باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ص 230.

[3] محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص 181

الإيتوس بقوله:"صورة مزدوجة للمتلفظ، صورة طبع وجسدية"[1]

ففي الإيتوس الخلقي تكون الوسيلة التي يظهر من خلالها المخاطب هي إبراز أخلاقه وقيمه التي يشترك مع السامع في مرجعيتها.

وفي الإيتوس الجسدي تكون الوسيلة التي يظهر بها هي جسده؛ "فقد يشد السامعين بنبرة في صوته يتميّز بها، وبإيقاع في جمله لا يوجد عند غيره، وربما أعجبهم منه مظهر لائق، وهيئة تبعث على الارتياح"[2]

3-أنواع الإيتوس في الحديث النبوي:

لا شكّ أن الحجاج خاصية من خصائص الحديث النبوي، ويأتي ذلك من جملة من الأمور:

الأول: أنه خطاب، والخطاب كما يعرفه أبو الحسن الآمديّ (ت:631هـ): «أنّه اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيّئ لفهمه»[3]، والحديث النبوي هو من هذا القبيل فهو خطاب، إذ الوظيفة النبوية تتمثل في البلاغ والتبيين كما قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» [المائدة: 67]، وكما قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»[النحل: 44]. والقاعدة أنّه "لا خطاب دون حجاج" –كما يقول طه عبد الرحمان-[4]، وهو الأمر نفسه الذي تقرره "روث أموسي" حيث تعتبر الحجاج أحد مكونات الخطاب، وأنّ الخطاب مهما كانت مكوناته فإن الحجاج جزء منه[5].

الثاني: وظيفة التبليغ والتبيين، التي هي وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم، تعمل على إقناع المخاطبين وحملهم على تصديق الرسالة، وتقديم الحجج المختلفة من أجل ذلك. يقول الله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» [الإسراء: 15]، يقول السعدي في تفسير هذه الآية: «والله تعالى أعدل العادلين لا يعذب أحدا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجج، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه»[6].

---

[1] باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ص 230.

[2] ينظر، حاتم عبيد: في تحليل الخطاب، ص 117.

[3] أبو الحسن الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، تح: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، د ط، د ت، 1/ 95،96.

[4] طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب 1997، ص 215.

[5] روث أموسي: هل يتعين دمج الحجاج في تحليل الخطاب؟ إشكالات ورهانات، تر: جمال الدين العمارتي، مركز أفكار للدراسات والأبحاث، المغرب، 2020، ص 16.

[6] عبد الرحمان السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار الرسالة، ط1، لبنان،

الثالث: عدم إكراه الناس على الإيمان من قبل النبي صلى الله عليه وسلم في مثل قوله تعالى: «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [يونس: 99]، يدل على أنّ المقابل للإكراه هو الحاصل في بلاغه عليه الصلاة والسلام، وعكس الإكراه هو الحجاج؛ "إذ إن الحجاج هو البديل عن العنف في نظرية الحجاج"[1]، وقد جاء هذا المعنى صريحا في قوله تعالى: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ» [الغاشية: 22].

الحجاج بالإيتوس في الحديث النبوي:

جاء الحجاج في الحديث النبوي بأنواعه المختلفة؛ الحجاج العقلي (اللوغوس)، والحجاج الأخلاقي (الإيتوس)، والحجاج العاطفي (الباتوس)، وكان كل ذلك في موضعه المناسب، وموقعه المطلوب، وحقق أثره ونتائجه على أحسن وجه. يقول الجاحظ في وصف الحجاج النبويّ: «لم تَسقُطْ له كلمةٌ، ولا زلَّت به قدمٌ، ولا بارتْ له حجة، ولم يَقُم له خصمٌ، ولا أفحمه خطيبٌ، بل يَبُذُّ الخطبَ الطِّوالَ بالكَلِم القصار، ولا يلتمس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصمُ، ولا يَحتجُّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْجَ إلا بالحق...»[2].

وإذا نظرنا في الحجاج بالإيتوس في الحديث فسنجده حاضرا وإن كان بدرجة أقل من الحجاج العقلي، الحجاج بالإيتوس –كما أسلفنا– هو ظهور المتكلم بالمظهر الذي يجعله جديرا بثقة جمهوره وسامعيه، وهو إما أن يكون جاهزا أو خطابيا، والخطابي إما أن يكون صريحا أو مضمرا.

فأما الإيتوس الجاهز فهو عند النبي صلى الله عليه وسلم على الوجه الأكمل، يشهد له بذلك أعداؤه قبل محبيه، فقد كان يلقب قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين، وعمل القرآن الكريم على إبراز هذا الجانب الأخلاقي للنبي صلى الله عليه وسلم إبرازا واضحا، كما جاء في قوله تعالى:« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [ن: 04]،

وقوله تعالى: « فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ»[آل عمران: 109]، وقوله: «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» [التَّوْبَةِ: 128] وغير ذلك من الآيات. كما نجد أن الصحابة عملوا على إبراز هذا الجانب في النبي صلى الله عليه وسلم، من ذلك قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا. فَرُبَّمَا تَحْضُرُ الصَّلَاةُ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا. فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ. ثُمَّ يُنْضَحُ. ثُمَّ يَؤُمُّ رَسُولُ

2000، ص 455.

[1] عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، ط2، تونس، 2007، ص 42.

[2] الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط7،مصر، 1998، 2/ 17، 18.

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّي بِنَا. وَكَانَ بِسَاطُهُمْ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ [صحيح مسلم]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أيضا قال: خَدَمْتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرٌ سِنِينَ. وَاللَّهِ! مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ. وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟ »، ومن ذلك ما جاء من وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالصادق المصدوق على لسان بعض الرواة من الصحابة، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «سَمِعْتُ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ يَقُولُ: هَلَكَةُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ» [رواه البخاري]، وعن عبد الله بن مسعود قال:« حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ» [رواه البخاري]. ولا يقتصر هذا الأمر على الجانب الخلقي فقط، بل يتعداه أيضا إلى الجانب الخَلقي الجسدي، وفي ذلك يقول البراء بن عازب رضي الله عنه:« كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا. وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا. ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير»[رواه البخاري].

والإيتوس الخطابي بنوعيه الصريح والمضمر نجده أيضا في الأحاديث النبوية، فأخلاقه عليه الصلاة والسلام كانت تظهر في خطابه، يقول الطاهر بن عاشور في معرض تفسيره لقوله تعالى: « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [ن: 04]، « فَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُ الْخُلُقُ الْعَظِيمُ فِي نَفْسِهِ، وَمُتَمَكِّنٌ مِنْهُ فِي دَعْوَتِهِ الدِّينِيَّةِ ... وَأَمَّا مَظَاهِرُهَا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفِي ذَلِكَ كُله وَفِي سياسته أُمَّتِهِ، وَفِيمَا خُصَّ بِهِ مِنْ فَصَاحَةِ كَلَامِهِ وجوامع كَلمه»[1]، فابن عاشور يشير هنا إلى أنّ أخلاقه عليه الصلاة والسلام لا تقتصر عليه، بل تظهر في وظيفة الإبلاغ المكلف بها، كما تظهر في خطابه وكلامه، ولم يبيّن ابن عاشور طريقة هذا الظهور لكننا نفترض أنه ظهور بطرقتين صريحة ومضمرة، وهو ما تؤكده الأحاديث المختلفة، من ذلك:

قوله عليه الصلاة والسلام: « **أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا**» [صحيح مسلم]

وقوله: « **أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا، لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ**» [سنن الترمذي]

وقوله: « **أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ**» [صحيح مسلم]

وقوله:« **أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخر وأنا أولُ من تنشقُّ الأرضُ عنه يومَ القيامةِ ولا فخر وأنا أولُ شافعٍ وأولُ مشفَّعٍ ولا فخر ولواءُ الحمدِ بيدي يومَ القيامةِ ولا فخر**» [سنن ابن ماجه]

وقوله:« **لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**» [صحيح البخاري]

[1] الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج 29/ ص 64، 65.

وقوله: « **فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا. وَأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة. وختم بي النبيون**» [صحيح مسلم]

وقوله:« **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ. وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ. وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ. وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» [صحيح مسلم]

وقوله: «**(مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ). فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ، كُنْتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة)**» [صحيح البخاري]

وقوله: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقونني). قالوا: بلى، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: {تبت يدا أبي لهب}**»[صحيح البخاري]

وقوله:«**خَيْرُكُمْ خيركم لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**» [سنن الترمذي]

وقوله: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ من سبعين مرة**» [صحيح البخاري]

وقوله:« **واللهِ لاتجدون بعدي أعدلَ عليكم منِّي**» [السلسة الصحيحة]

وقوله: «**أفلا أكون عبدا شكورا**» [صحيح البخاري]

وقوله:« **وَاللَّهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي**» [صحيح البخاري]

وقوله: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وأعلمكم بالله أنا**» [صحيح البخاري]

وقوله: «**قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ، وَلَوْلَا هَدْيِي لَحَلَلْتُ كَمَا تَحِلُّونَ، فَحِلُّوا، فَلَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ**» [صحيح البخاري]

وقوله:«**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا تَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللهُ**» [سنن النسائي]

فهذه الأحاديث وغيرها كثير يظهر فيها الجانب الخلقي للنبي صلى الله عليه وسلم في خطابه إما بشكل صريح أو بشكل مضمر، وكانت فرضيتنا في هذا البحث أن النبي صلى الله عليه وسلم أظهر هذا الجانب الشخصي له في أحاديثه وأثنى على ذاته ونفسه لأجل غرض حجاجي إقناعي، ففي كل تلك الأحاديث السابقة كان الغرض منها الإقناع بقضية معيّنة.

وهنا نطرح سؤالين:

لماذا اعتمد النبيّ صلى الله عليه وسلم على إبراز هذا الجانب الذاتي (الإيتوس) من أجل الإقناع بقضايا معينة؟

وما القضايا التي استعمل فيها النبي صلى الله عليه وسلم هذه الطريقة الحجاجية؟

للإجابة على السؤال الأول نقول إنّ هذا النوع من الحجاج ينطلق من مبدأ عام هو أن الثقة في القائل ثقة في المقول، وانطلاقا من هذا المبدأ يمكننا أن نقول أيضا إنّ الثقة في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وبلاغه وخطابه تتأسس على الثقة في شخص النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا ما نجده حاضرا بوضوح في حديث: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقونني. قالوا: بلى، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)**»؛ فهنا يؤسس النبيّ عليه الصلاة والسلام لعملية استدلال مكتملة الأركان ينطلق فيها من القاعدة التي ذكرناها سابقا من "أنّ الثقة في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وبلاغه وخطابه من الأحكام يتأسس على الثقة في شخص النبيّ صلى الله عليه وسلم"، وذلك في قوله: وذلك في قوله: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقونني. قالوا: بلى » فهذه الجملة بسؤالها وجوابها بمثابة المقدمة الكبرى يبني عليها النبي عليه الصلاة والسلام مقدمة صغرى وهي قوله: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، لتكون النتيجة المحتومة لهذه العملية هي: يجب التصديق بالدعوى الثانية كما حصل التصديق بالدعوى الأولى. وإن كانت هذه النتيجة لم تذكر بالتصريح في هذا الحوار لأنّها نتيجة محتومة لا تترك للخصم أيّ مهرب، بل تبعث فيه الحرج الشديد الذي يدفعه للسب والشتم، وهذا حصل من أبي جهل. فالنبي صلى الله عليه وسلم بنى هذا الاستدلال بناء منطقيا عقليا انطلق فيه من مقدمتين ليصل إلى نتيجة، لكنّه بنى مضمون هذا الاستدلال على أنّ الثقة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم ثقة في رسالته، فهو إذا استعمل طريقة الحجاج بالإيتوس من أجل هذا الأمر.

الأمر الآخر الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل هذا النوع من الحجاج هو أنّ القضايا التي يريد أن يقنع بها المخاطبين هي قضايا مرتبطة به عليه الصلاة والسلام، مرتبطة بالإيمان به وبالتعرف على حقيقته عليه الصلاة والسلام؛ فالنبيّ عليه الصلاة والسلام هنا يحاجج بإبراز ذاته من أجل الإقناع بذاته، فحصل في هذا الحجاج تجاور، ولا نقول تطابق، بين الحجة والدعوى، فالأمر هنا أشبه بالعلامة الأيقونية في السيميائيات التي يتجاور فيها الدال والمدلول؛ كالصورة الفوتوغرافية التي تعرّف بمدلول صاحبها عن طريق دال هو صاحب الصورة نفسه.

قد يبدو هذا الأمر غريبا بعض الشيء، إذ كيف يُحاجَج بحجة تتقارب مع الدعوى؟!

لكن هذه الغرابة تزول إذا علم أنّ الدعوى التي يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقنع بها كلية، بينما الحجج جزئية، فهناك علاقة الكل بالأجزاء، فهناك الصورة المكتمِلة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي التي يريد أن يقنع ويعرّف بها المخاطبين، والحجج هي أجزاء هذه الصورة أو دلائلها المتعددة، فلما كان الأمر بناء

لصورة وتصحيح لتصور اقتضى أن تكون الحجة من حِمى الدعوى.

وهنا يأتي السؤال: ما الدعاوى الكلية التي يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقنع بها؟ أو ما القضايا التي استعمل فيها النبي صلى الله عليه وسلم هذه الطريقة الحجاجية؟

4-المقاصد النبوية من الحجاج بالإيتوس:

قادنا النظر في الأحاديث السابقة وأحاديث أخرى على شاكلتها إلى تبيّن أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يستخدم طريقة الحجاج بالإيتوس لمقصدين أساسا: الأول: الإقناع بالنبوة، والثاني: الإقناع بالبشرية.

فالنبي عليه الصلاة والسلام في أي حديث يتحدث فيه عن نفسه لا يخرج عن كونه يريد أن يقنع بنبوته أو يريد أن يقنع ببشريته. وقد يبدو غريبا أن تستعمل الطريقة نفسها للإقناع بأمرين بينهما بون وتباين، لكنّ الغرابة تزول إذا استرجعنا ما قلناه سابقا من أنّ "القضايا التي يريد أن يقنع بها المخاطبين هي قضايا مرتبطة به عليه الصلاة والسلام، مرتبطة بالإيمان به وبالتعرف على حقيقته عليه الصلاة والسلام"؛ وحقيقته هو أنّه يجمع بين هذين الأمرين البشرية والنبوة، فكان الإقناع في حقيقته متوجها إلى أمر واحد وهو التعريف بمحمد عليه الصلاة والسلام.

وقد حصل لبس كبير وسوء فهم لهذه الحقيقة (الجمع بين النبوة والبشرية)؛ فقد تصور كثير من الناس في زمنه عليه الصلاة والسلام أنهما أمران لا يجتمعان، فمن كان بشرا مثل بقية البشر لا يمكن أن يكون نبيّا، ومن كان نبيّا فهو في منزلة أعلى من منزلة البشرية، ولهذا جاء القرآن مصححا لهذا التصور الخاطئ وآمرا للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يصححه أيضا، من ذلك قوله تعالى:« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ » [فصلت: 06]، يقول الطبري في تفسيرها:« يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المعرضين عن آيات الله من قومك: أيها القوم، ما أنا إلا بشر من بني آدم مثلكم في الجنس والصورة والهيئة لست بملك (يُوحَى إِلَيَّ) يوحي الله إلى أن لا معبود لكم تصلح عبادته إلا معبود واحد»[1]، ويقول الطاهر بن عاشور:« فَصِيغَةُ الْقَصْرِ فِي إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تُفِيدُ قَصْرًا إِضَافِيًّا، أَيْ أَنَا مَقْصُورٌ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ دُونَ التَّصَرُّفِ فِي قُلُوبِ النَّاس. وبيّن مِمَّا تَمَيَّزَ بِهِ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الِاحْتِرَاسِ مِنْ أَنْ يَتَلَقَّفُوا قَوْلَهُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تَلَقُّفَ مَنْ حَصَلَ عَلَى اعْتِرَافِ خَصْمِهِ بِنُهُوضِ حُجَّتِهِ بِمَا يُثْبِتُ الْفَارِقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ، وَهُوَ مَضْمُونُ جُمْلَةِ يُوحى إِلَيَّ وَذَلِكَ لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ إِبْطَالَ زَعْمِهِمُ الْمَشْهُورِ الْمُكَرَّرِ

[1] محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1، السعودية، 2001، 21/ 430.

أَنَّ كَوْنَهُ بَشَرًا مَانِعٌ مِنْ إِرْسَالِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى»[1]. ونظير هذا الأمر ما جاء في قوله تعالى: «وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً» [الفرقان: 07]، يقول ابن عاشور: « وَكَنَّوْا بِأَكْلِ الطَّعَامِ وَالْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ عَنْ مُمَاثَلَةِ أَحْوَالِهِ لِأَحْوَالِ النَّاسِ تَذَرُّعًا مِنْهُمْ إِلَى إِبْطَالِ كَوْنِهِ رَسُولًا لِزَعْمِهِمْ أَنَّ الرَّسُولَ عَنِ اللَّهِ تَكُونُ أَحْوَالُهُ غَيْرَ مُمَاثِلَةٍ لِأَحْوَالِ النَّاسِ، وَخَصُّوا أَكْلَ الطَّعَامِ وَالْمَشْيَ فِي الْأَسْوَاقِ لِأَنَّهُمَا مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُشَاهَدَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ، وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ هَذَا بِقَوْلِهِ: وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ [الْفرْقَان: 20] »[2].

فدعوى" أَنَّ الرَّسُولَ عَنِ اللَّهِ تَكُونُ أَحْوَالُهُ غَيْرَ مُمَاثِلَةٍ لِأَحْوَالِ النَّاسِ" هي الدعوى التي يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يصححها ويبطل التسليم بها من خلال الأحاديث السابقة، ويبني في المقابل دعوى أخرى هي" أَنَّ الرَّسُولَ عَنِ اللَّهِ تَكُونُ أَحْوَالُهُ مُمَاثِلَةً لِأَحْوَالِ النَّاسِ".

وذلك التصور الخاطئ كان في ذهن كثير من الصحابة وظهر في بعض أقوالهم من ذلك قولهم: «إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»، فكانت وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم تصحيحه. واستعمل من طرف المشركين حجة لنفي نبوة النبي فكانت وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم إبطاله ودحضه.

الإقناع بنبوته عليه الصلاة والسلام:

والمقصود بالإقناع هنا حمل العقول على التسليم بها أو زيادة التسليم بها؛ فالحمل على التسليم بها متوجّه إلى المنكرين لها، والحمل على زيادة التسليم بها متوجّه إلى المؤمنين بها. وقريبا من هذا المعنى ما قاله أبو العباس القرطبي:«وهذه الخصائص والفضائل التي حدَّث بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه، إنما كان ذلك منه لأنها من جملة ما أمر بتبليغه، لما يترتب عليها من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حق في نفسه، وليرغب في الدخول في دينه، وليتمسك به من دخل فيه، وليعلم قدر نعمة الله عليه في أن جعله من أمَّة من هذا حاله، ولتعظم محبَّته في قلوب مُتَّبعيه، فتكثر أعمالهم، وتطيب أحوالهم، فيحشرون في زمرته، وينالون الحظَّ الأكبر من كرامته. وعلى الجملة فيحصل بذلك شرف الدنيا، وشرف الآخرة، لأنَّ شرف المتبوع متعدٍّ لشرف التابع على كل حال»[3].

[1] الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 24/ 237.

[2] المصدر نفسه : 18/ 327.

[3] أبو العباس القرطبي: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تح: محيي الدين ديب ميستو – أحمد محمد السيد – يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، ط1، دمشق – بيروت، 1996، 6/ 49.

فمن الأحاديث التي جاءت لهذا المقصد:

قوله عليه الصلاة والسلام: « **أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا**» [صحيح مسلم]

وقوله: « **أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا، لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ**» [سنن الترمذي]

وقوله: « **أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ**» [صحيح مسلم]

وقوله:« **أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخر وأنا أولُ من تنشقُّ الأرضُ عنه يومَ القيامةِ ولا فخر وأنا أولُ شافعٍ وأولُ مشفَّعٍ ولا فخر ولواءُ الحمدِ بيدي يومَ القيامةِ ولا فخر**» [سنن ابن ماجه]

فهذه الأحاديث يتحدّث فيها النبي عليه الصلاة والسلام عن نفسه، ويدخل هذا الأمر فيما يسمى بالحجاج بالإيتوس وذلك من عدّة وجوه؛ فهو عليه الصلاة والسلام يبنى في خطابه صورة لذاته يريد أن يؤثر من خلالها على مخاطبيه. (وحري بالتأكيد هنا أن الصورة التي تبنى هنا هي صورة حقيقة يتطابق فيها الخطاب مع الواقع)، وقد بنيت هذه الصورة عن الذات وحضور الضمير "أنا" أكبر دليل على ذلك، وكذا حضور صيغة "اسم الفاعل" و"الصفة المشبهة" (خطيب، مبشر، سيد، شافع)، والفكرة التي تأسست عليها هي الأفضلية ولهذا جاءت صيغ التفضيل بكثرة (أوّل، أكرم، أكثر)، ومقام هذه الصورة هو "الدار الآخرة" وليس الدنيا (الجنّة، البعث، يوم القيامة)، وهذه الأمور كلها ليست من باب الفخر (ولا فخر) فهي الحقيقة الثابتة.

فالصورة بعد جمع جزئياتها هي "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أفضل البشر ومنهم الأنبياء في الدار الآخرة"، وهذه الصورة هي التي ستكون حجّة على نبوته عليه الصلاة والسلام، والحجّة هنا هي إثبات الأعلى إثبات للأدنى، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أفضل البشر والأنبياء فهو إذا من باب تحصيل الحاصل بشر نبيّ، وإذا كان أفضل البشر والأنبياء في الدار الآخرة فمن باب أولى أنه أفضلهم في الدار الدنيا، إذ الآخرة خير من الأولى.

قوله عليه الصلاة والسلام:« **لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**» [صحيح البخاري]

فهذا الحديث أيضا يتحدّث فيه النبي عليه الصلاة والسلام عن نفسه ويبني فيه صورة عن ذاته، وهذه الصورة هي التي تكون حجة للإقناع بنبوته؛ فهنا يذكر النبيّ صلى الله عليه السلام ببعض أسمائه التي يسمى بها، وذكره لهذه الأسماء هو تعريف بحقيقته، إذ أسماؤه تحيل على مدلولاتها، فليست هي أسماء فارغة تستعمل لتعيين مسماها، بل هي تدل على صفات لازمة في النبي عليه والصلاة والسلام، يقول القاضي عياض: «

فَمِنْ خَصَائِصِهِ تَعَالَى لَهُ أَنْ ضَمَّنَ أَسْمَاءَهُ ثَنَاءَه فَطَوَى أَثْنَاء ذِكْرِهِ عَظِيمَ شُكْرِهِ فَأَمَّا اسْمُهُ أَحْمَدُ فَأَفْعَلُ مُبَالَغَةً من صِفَةِ الْحَمْدِ وَمُحَمَّدٌ مُفَعَّلٌ مُبالَغَةً من كَثْرَةِ الْحَمْدِ فهو صلى الله عليه وسلم أَجَلُّ من حَمِدَ وَأَفْضَلُ من حُمِدَ وَأَكْثَرُ النَّاسِ حَمْدًا فَهُوَ أَحْمَدُ الْمَحْمُودِينَ وَأَحْمَدُ الْحَامِدِينَ وَمَعَهُ لواء الحمد يوم القيامة وليتم لَهُ كَمَالُ الْحَمْدِ وَيَتَشَهَّرَ في تِلْكَ الْعَرَصَاتِ بِصِفَةِ الْحَمْدِ، وَيَبْعَثُهُ رَبُّهُ هُنَاكَ مَقَامًا مَحْمُودًا كَمَا وَعَدهُ يَحْمَدُهُ فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخرُونَ بِشَفَاعِتِهِ لَهُمْ وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ فِيهِ مِنَ الْمَحَامِدِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ يُعْطَ غَيْرُهُ»[1].

وكانت هذه الأسماء والأوصاف حجّة على نبوته عليه الصلاة والسلام من وجهين:

الأول: أنّ هذه الأسماء بمدلولاتها لا تكون إلا نبيّ مرسل من عند الله ولا تكون لإنسان عادي.

الثاني: اختيار النبيّ صلى الله عليه وسلم دون ما سواها هو أنّها ذكرت في الأمم السابقة، يقول الحافظ ابن حجر: «وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ لِي خَمْسَةَ أَسْمَاءٍ أَخْتَصُّ بِهَا لَمْ يُسَمَّ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي أَوْ مُعَظَّمَةٌ أَوْ مَشْهُورَةٌ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ لَا أَنَّهُ أَرَادَ الْحَصْرَ فِيهَا»[2]

قوله عليه الصلاة والسلام: « **فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا. وَأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة. وختم بي النبيون**» [صحيح مسلم]

وقوله:« **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ. وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ. وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ. وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» [صحيح مسلم]

وقوله: «**(مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ). فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ، كُنْتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة)**» [صحيح البخاري]

وقوله: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقونني). قالوا: بلى، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: {تبت يدا أبي لهب}**»[صحيح البخاري]

في هذه الأحاديث الأربعة يبني النبي صلى الله عليه وسلم صورة لنفسه ثم يستعمل المنطق القياسي للتدليل على نبويته عليه الصلاة والسلام؛ ففي الحديث الأول يبني صورة "الأفضلية" بتجلياتها المختلفة، ليُستدل بهذه الصورة، على طريقة قياس الأولى، أن محمدا عليه الصلاة والسلام نبيّ من عند الله. وفي الحديث الثاني يبني

[1] القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، 1988، 1/ 229.

[2] ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، لبنان، 1379، 6/ 556.

صورة "الاصطفاء والخيرية"، ليستدل بها، على طريقة القياس، أنّ محمدا عليه الصلاة والسلام أهل للاصطفاء بالنبوة، فمن اصطُفي من خير نسل في البشرية لا غرابة أن يحوز على النبوة. وفي الحديث الثالث يبني صورة "رعي الغنم" ليستدل بها وفق قياس المماثلة على نبوته عليه الصلاة والسلام، فإذا كان رعي الغنم فعلا مشتركا للأنبياء جميعا ومحمد لم يشذ عن هذا الأمر فهذا دليل على صدق ادعائه للنبوة. وفي الحديث الرابع يبني صورة "الصادق المصدّق في أخباره" ليستدل بها على وجوب تصدقيه في نبوته عليه الصلاة والسلام، فإذا كان صادقا مصدقا في جميع أموره فلماذا يكذب ويُكذَّب في ادعائه للنبوة.

الإقناع ببشريته عليه الصلاة والسلام:

والمقصود بالإقناع هنا تصحيح تصوّر خاطئ، وهو أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم في مقام أعلى من البشرية. وهذا التصور كان لدى كثير من الصحابة، لذلك كان هذا الإقناع متوجها للمؤمنين وليس للكافرين. وخطورة هذا التصور تكمن في اعتقاد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم غير محتاج للعمل والعبادة والخوف والخشية، وهذا يؤدّي إلى تصور أخطر وهو أنه لا يجعل من النبي صلى الله عليه وسلم قدوة وأسوة، لأنّ الاقتداء يكون بالمكافئ في البشرية والنبي – في هذا التصور- ليس مكافئا بل أعلى من رتبة البشرية.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضب غضبا شديدا من هذا التصور، ويرد عليه بمدح ذاته تعريفا بها وتصحيحا لذلك التصور، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: (إِنَّ أَتْقَاكُمْ وأعلمكم بالله أنا) [صحيح البخاري]، وعنها أيضا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَفْتِيهِ، وَهِيَ تَسْمَعُ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ. أَفَأَصُومُ؟ فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم:وأنا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ، فَأَصُومُ" فَقَالَ: لَسْتَ مِثْلَنَا. يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ. فَقَالَ:"وَاللَّهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي" [صحيح البخاري].

فالنبي صلى الله عليه وسلم يستخدم طريقة الحجاج بالإيتوس ليصحح معتقدا خاطئا، وذلك بالتأكيد على عكس ما يلزم من هذا التصور، فيؤكد على أنه "أخشى" و"أتقى" و"أعلم"، وهذه الأمور الثلاثة يلزم عنها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم مثل بقية البشر – المؤمنين منهم خاصة – يخشى الله ويتقي غضبه وحسابه وأنّه ليس في مأمن من ذلك، وأنّ ما يقوم به من الأعمال نابع من تلك الأمور، ومن أمر آخر وهو العلم بالله، فهو الأعلم بالله، الأعلم بما يرضيه والأعلم بما يسخطه.

وجملة "إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ" أو " لَسْتَ مِثْلَنَا" هي الجملة المضمرة في بقية الأحاديث التي

يتحدّث فيها النبي صلى الله عليه وسلم مادحا أفعاله وأعماله؛ فقوله عليه الصلاة والسلام: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ من سبعين مرة**»، يسير في هذا الاتجاه فهو حجاج من أجل الإقناع ببشريته، فهو أيضا يطلب مغفرة الله وعفوه ويرجع ويتوب إليه كما يفعل كل مؤمن ومسلم، لكن الاختلاف هنا في "المستغفَر منه"، فهناك من المسلمين من يتوب من الكبائر وهناك من يتوب من الصغائر، أما استغفار النبي عليه الصلاة والسلام فهو "مِنَ التَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِاشْتِغَالِهِ بِالْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ مِنْ أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ أَوْ جِمَاعٍ أَوْ نَوْمٍ أَوْ رَاحَةٍ أَوْ لِمُخَاطَبَةِ النَّاسِ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَمُحَارَبَةِ عَدُوِّهِمْ تَارَةً وَمُدَارَاتِهِ أُخْرَى وَتَأْلِيفِ الْمُؤَلَّفَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْجُبُهُ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَمُشَاهَدَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ فَيَرَى ذَلِكَ ذَنْبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ"[1]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»، هو إجابة عن تلك الجملة المضمرة وإن قيلت له هنا في مقام معاكس للمقام في الأحاديث السابقة، فالمقام هنا "تعظيم العمل" والمقام الآخر "تقليل العمل"، لكن المضمون واحد وهو "لست مثلنا فلا تحتاج إلى العمل"، فيجيب النبي صلى الله عليه وسلم تأكيدا لبشريته بأمرين؛ بالتنصيص عليها بقوله:«عبد»، وبذكر فعل من أفعالها وهو "الشكر". وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «**خَيْرُكُمْ خيركم لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**» تصحيح لتلك الجملة المضمرة، فهو هنا يبين للناس أنه مثلهم يملك أهلا مثلما يملكون أهلا، وأنه مثلهم يعامل أهله ويحسن إليهن وبهذا اكتسب الخيرية، فمن أراد أن يكتسبها أيضا فليحسن معاملة أهله، فالنبيّ صلى الله عليه وسلم يصحح لهم ما قد يحصل لهم من الوهم من أنّ حسن معاملته لأهله وصبره عليهنّ نابع من كونه في مرتبة أعلى من البشرية. وخلاصة ما في هذا الأمر ما نجده في قوله عليه الصلاة والسلام:«**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا تَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللهُ**».

خاتمة البحث:

خلص البحث إلى مجموعة من النتائج أهمّها:

1-أن الحجاج خاصية من خصائص الحديث النبوي، ويأتي ذلك من جملة من الأمور؛ كونه خطابا، وكونه يقوم بوظيفة التبليغ والتبيين، وكونه يقوم على عدم الإكراه.

[1] ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، 11/ 102.

2-أن إظهار النبي صلى الله عليه وسلم لجانبه الذاتي في أحاديثه وثنائه على نفسه كان لأجل غرض حجاجي إقناعي، ويدخل ضمن ما يعرف بـ"الحجاج بالإيتوس".

3-استعمال النبيّ صلى الله عليه وسلم لهذه الطريقة الحجاجية (مدح الذات أو الإيتوس) يرجع إلى أمرين:

أ-أنّ الثقة في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وبلاغه وخطابه تتأسس على الثقة في شخص النبيّ صلى الله عليه وسلم، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يمدح ذاته ويظهر صورتها الحقيقة.

ب-أنّ القضايا التي يريد أن يقنع بها المخاطبين هي قضايا مرتبطة به عليه الصلاة والسلام، مرتبطة بالإيمان به وبالتعرف على حقيقته عليه الصلاة والسلام؛ فالنبيّ عليه الصلاة والسلام هنا يحاجج بإبراز ذاته من أجل الإقناع بذاته.

4-قادنا النظر في بعض الأحاديث التي مدح فيها النبي ذاته إلى استنتاج أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يستخدم طريقة الحجاج بالإيتوس لمقصدين أساسا: الأول: الإقناع بنبوته، والثاني: الإقناع ببشريته.

5-الإقناع بالنبوة كان متوجها إلى نوعين من المخاطبين؛ الكافرين وذلك بحملهم على التسليم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام. والمؤمنين وذلك بحملهم على زيادة التسليم بنبوته عليه الصلاة والسلام.

6-الإقناع بالبشرية كان متوجها إلى المؤمنين خاصة، وذلك من أجل تصحيح تصور خاطئ لدى كثير منهم، وهو أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم في مقام أعلى من البشرية.

مصادر ومراجع البحث:

1. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، لبنان، 1379
2. أرسطو طاليس: الخطابة، تر: عبد الرحمان بدوي، دار الرشيد، العراق، 1980

3. آمال يوسف المغامسي: الحجاج في الحديث النبوي –دراسة تداولية–"، الدار المتوسطية للنشر، تونس، سنة 2016.
4. الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، تح: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان
5. باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: حمادي صمود وعبد القادر المهيري، المركز الوطني للترجمة، تونس
6. الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط7،مصر، 1998
7. حاتم عبيد: في تحليل الخطاب، دار ورد، ط1، الأردن، 2013
8. الحسين بنو هاشم: بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، ليبيا، 2014
9. روث أموسي: هل يتعين دمج الحجاج في تحليل الخطاب؟ إشكالات ورهانات، تر: جمال الدين العمارتي، مركز أفكار للدراسات والأبحاث، المغرب، 2020
10. الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984
11. طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب 1997
12. عبد الرحمان السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار الرسالة، ط1، لبنان، 2000
13. عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، ط2، تونس، 2007
14. القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، 1988
15. القرطبي: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تح: محيي الدين ديب ميستو – أحمد محمد السيد – يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، ط1، دمشق – بيروت، 1996
16. محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1، السعودية، 2001
17. محمد مشبال: في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2017